(١٠)
السيدة زينب فى مصر

obeikandl.com

كان من الطبيعى وقد عادت السيدة زينب رضى الله عنها إلى المدينة، أن يتوافد الناس عليها ليعرفوا ما حدث لها ولآل البيت فى كربلاء.

وكان من الطبيعى أن يتعاطف الناس معها للظلم الذى تعرض له الإمام الحسين.. سواء من هؤلاء الذين طلبوا منه الذهاب إليهم ومبايعته والجهاد معه ضد بنى أمية.. أو من بنى أمية أنفسهم لأن الخصومة لم ترتفع بهم إلى أخلاقيات الإسلام وقيمه ومبادئه.

لا تسامح.. ولا رحمة.. ولا حتى مفاوضات للوصول إلى أسلم الطرق لحقن دماء المسلمين..

وكان من الطبيعى أن يشعر الناس فى مدينة رسول الله بمدى الظلم والانتقام البشع الذى صبه الأمويون على الناس.

وإذا كانوا يفعلون ذلك بآل بيت النبى فكيف يفعلون بغيرهم ممن لا ينتسبون إلى البيت النبوى.. ولا إلى من كان والده خليفة للمسلمين وقائد مسيرتهم.

وكان من الطبيعى أيضًا أن تكون عين والى المدينة على آل البيت، وعلى الناس، يرصد تحركاتهم وكلماتهم.. وأصبح جو المدينة يظلله الغيوم.

ولاذت السيدة زينب بربها.. فتكثر من العبادة.. وتكثر من كل ما يقربها إلى الله، وقد احتسبت عند الله من لقوا ربهم فى هذا اليوم الحزين، الذى لم تغرب شمسه إلا بعد نهار دامى كئيب.. فصلت فيه أجساد الحسين وأتباعه عن رءوسها.. ومُثّل بهم بما لم يعرف له التاريخ مثيلاً من قبل.

لابد أن أطيافاً كثيرة من الذكريات طافت برأس السيدة الجليلة.. على هذه الأرض الطيبة جاء جدها العظيم.. ليآخى بين المهاجرين والأنصار، ويعلن ميثاق المدينة يعطى اليهود حرية العبادة ولا يعتدوا على الآخرين.. وبأنصاره والمهاجرين.. وحد شبه الجزيرة العربية كلها تحت راية الإسلام، بعد أن خاض المعركة تلو المعركة.. حتى عم نور الله.

وها هم المسلمون وقد خرجوا بفضل الإسلام إلى خارج شبه الجزيرة العربية، وكونوا امبراطورية تمتد من الصين حتى المحيط الأطلنطى.. ومع ذلك فقد جاء منهم من يقتل أحفاده وأولاده فى كربلاء..!

لابد أن الأحزان كانت تعتصرها.. وقد تجاوزت عقدها الخامس!!..

وهذه الأطياف الحزينة تمر بها..

لقد فرضت عليها الظروف أن تلعب أخطر الأدوار السياسية فى ظروف بالغة القسوة.

كم آست من جراح.. وكم واست.. وكم وقفت تدافع عن أخيها وعن أهلها.. ولكن الأقدار كانت قد سلكت بهم وبها طريقًا آخر..

ولم يبق إلا رجع صدى الأحزان والآلام..

وربما وهى بالقرب من قبر جده العظيم عليه الصلاة والسلام يتداعى إلى ذهنها هؤلاء الذين خدعوا أخاها الحسين، فطلبوا أن يقبل عندهم، وعندما لبى طلبهم أداروا له ظهورهم.

وسيظل التاريخ يردد هذه الكلمة التى خرجت من قلب حزين.. قلب السيدة زينب رضى الله عنها، وهى تواجه هؤلاء الذين تركوا الحسين وأهله فريسة للرماح المحمومة، والسيوف الآثمة نجاة بأنفسهم.. فإذا بهم يستقبلون السيدة الجليلة بالدموع.. فقالت لهم:

أما بعد.. يا أهل الكوفة:

أتبكون. فلا سكنت العبرة ولا هدأت الرفة، إنما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا.. فأبكوا كثيرًا.. وأضحكوا قليلاً.. فقد ذهبتم بعارها وشنارها.. وكيف ترخصون قتل سبط الرسول، وهو سيد شباب أهل الجنة؟!!

أتدرون أى كبد فريتم؟!

وأى دم سفكتم؟!

وأى كريمة أبرزتم؟!

لقد جئتم شيئًا إداً تكاد السماوات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا».

وربما فكرت «أم هاشم» فطال بها التفكير عما حدث للأسرة النبوية.. وشريط الزكريات يشدها إلى أرض كربلاء.. وموقفها من ابن زياد.. وموقفها من يزيد بن معاوية.. والتى عبرت عنه بكلمات هى أقطع من حد السيف عندما قالت ليزيد:

- أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكتاف السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى. أن بنا هوانا على الله، وأن بك عليه كرامة؟

إن الله إن أملكَّ فهو قوله:

﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

أيام عصيبة أشد إيلامًا كانت تراود خيالها عندما تتداعى الزكريات عندما رجعت إلى المدينة.

* * *

ومع ذلك لم يتركوها.. لقد خشوا مع تزايد تعاطف الناس معها أن تثار فتنة.. وقد رأوا من شجاعة «أم هاشم».. وبلاغتها، وقوة إقناعها وما يذكرهم بوالدها الإمام على، وأخيها الإمام الحسين، فإذا بوالى المدينة يطالبها بأن تختار أى بلد غير المدينة لتعيش فيه.. فاختارت أن تعيش فى مصر.

* * *

وهناك من المؤرخين من يرى أنها لم تعش طويلاً بعد هذه الحادثة، وأنها كانت تريد أن تظل بقية حياتها بجانب قبر جدها عليه الصلاة والسلام، فلما ماتت دفنت فى البقيع.

ولكن قول أغلب المؤرخين كما نرى فى المراجع أنها جاءت إلى مصر فى شعبان سنة ٦١هـ وقد سبقتها إلى مصر مناقبها الجليلة، فكان فى استقبالها والى مصر مسلمة بن مخلد الذى استقبلها بما يليق بحفيدة الرسول عليه الصلاة والسلام.. كما استقبلها شعب مصر المحب لآل بيت نبيه عليه الصلاة والسلام بما يليق بمكانتها ومنزلتها من رسول الله.

ولقد أنزلها والى مصر تكريمًا لها بداره، وظلت بها لا تبرحها إلى أن وافاها الأجل المحتوم فدفنت فى نفس المنزل.. الذى أصبح مسجدها المعروف.

لم تمكث فى مصر إلا عام حيث رحلت إلى أكرم جوار عام ٦٢هـ.

* * *

ومسجد السيدة زينب كما تقول الدكتورة «سعاد ماهر» فى كتابها (مساجد مصر).. يقع فى الميدان الذى يعرف باسمها.

وكان قبل ذلك يعرف باسم قنطرة السباع نسبة إلى نقش السباع الموجود على القنطرة التى كانت مقامة على الخليج الذى كان يخرج من النيل عند فم الخليج وينتهى عند السويس، وكانت السباع (رنك) شارة الظاهر بيبرس الذى أقام القنطرة.

وفى عام (١٣١٥هـ ـ ١٨٩٨م) تم ردم الجزء الأوسط من الخليج، وبردمه اختفت القناطر، ومع الردم تم توسيع الميدان، وعند عملية التوسيع اكتشفت واجهة جامع السيدة زينب الذى كان الوالى العثمانى على باشا قد جدده سنة (٩٥١هـ -١٥٤٧م) ثم أعاد تجديده الأمير عبد الرحمن كتخذا سنة (١١٧٠هـ-١٧٦٨م). ومنذ اكتشاف واجهة الجامع فى القرن التاسع عشر، أصبح يطلق على الميدان بل والحى كله اسم عقيلة بنى هاشم.

وقد أقامت وزارة الأوقاف سنة ١٩٤٠ المسجد الموجود حاليًا، ويتكون من سبعة أروقة موازية للقبلة يتوسطها صحن مربع مغطى بسقبة، ويقابل القبلة فيه ضريح السيدة زينب.

ويتقدم المسجد من الواجهة الشمالية رحبتان يوجد بهما مدخلان رئيسيان يفصل بينهما مستطيل تعلوه (شخشيخة). وفى الطرف الشمالى الغربى يوجد ضريح سيدى العتريس.

وقد قامت الوزارة بعدة توسيعات هى التى تراها على المسجد الآن.

* * *

obeikandl.com